هذه المدن وتلك ماريلا المولعة بالشعر والدخان

علي بدر

تساءل ريتسوس مرة: الا يقترب الشعر بصورته الحاضرة من السفر؟ كان ريتسوس يعتقد ان الشعر هو سفر في الكلمات والفضاءات والعوالم المتنوعة، وحين وصلت الى أثينا أدركت ان السفر مدن مصنوعة من الشعر، ونساء يحملن الحقائب الجلدية ويدخن السجائر البيض في المطارات، هذه هي المدن التي زرناها في اليونان، لم تكن بعيدة عن الشعر أبدا، لا أقصد الجزر المتناثرة في البحر أمام البلقان، المدن التي يغمرها ضوء أبيض ويغشي عينيك سطح المياه اللامعة تحت وهج الشمس الدافئة، ولا النساء اللواتي يستحمن في بحر اليونان، أو النساء اللواتي يرتدين البناطيل الضيقة ويصعدن المدرجات العالية الى الاكربول، او ماريلا الشاعرة القادمة من بيروس، والتي كانت تعد حقيبتها امامي في فندق باخوس المطل على الميدان الكبير في أثينا، وهي تقول: (لا يا عزيزي انا ذاهبة لابحث عن الشعر في الباخرة ربيكا التي ستقلني الى الادرياتيك)..

لا الكابتن الذي كان ينظر الى ملامح بيريوس، ولا المنازل المدورة فوق سطح الجبل المحيط بالميناء، ولا حاجز السفن او الارصفة او السفن الراسية، او اجراس البواخر، او الامواج اتي ترتطم بالرصيف، او الابتسامات التي يقدمها البحارة للمارة، او ضحكات النساء للذين يلاحقونهن في بارات المرافئ، او تحقيقات البوليس عن الجوازات والتصريحات واجراءات الدخول، ولا الحركة التي لا تهدأ عند منضدة الجمارك، تنفصل في ذهني واحلامي عن السفر؟... وما يزيد كل هذا عندي هو الشعر.. حين اسافر الى بلد.. لا أفكر به الا من خلال المخيلة الشعرية التي صنعته.. او المخيلة الشعرية التي ولدت عنه.. الم يقل سيفيريس عن قبرص: (أنا اعبد الشاعر الذي اوجدك هكذا.. مستلقية حالمة على البحر).. كنت أسأل نفسي ذلك وانا اقطع المسافة بين بيريوس وأثينا وهي المسافة التي لا تزيد عن ثلث ساعة عبر محطة المترو امونيا، كنت اصعد نحوها من تحت الارض، احمل حقيبة محزومة على ظهري وأسير، وأرقب المارة الذين يهرعون في الصباح لاعمالهم، الرجال الذين يسيرون وهم يحملون الصحف بأيديهم، النساء اللواتي يحملن السلال، الكسبة الذين يقفون بالطابور في محطة المترو او عند ميدان الباصات، عمال التنظيف وهم يقشطون الاسفلت، موظفي البريد، وموظفات المصارف، سكرتيرات مكاتب السياحة، عمال الفنادق، باعة الصحف والمجلات في الاكشاك المنتصبة على الرصيف، عمال المطاعم الذين يرتدون الملابس الموحدة ويصفون الكراسي أمام المطاعم والمقاهي، وهنالك السياح الاوروبيون الذين يستقلون الباصات الكبيرة ويذهبون للمدن الاثرية، إنهم المغامرون الصغار الذين يغادرون في الفجر الارجواني ويتجهون في المنحدرات الترابية والمرتفعة والمهجورة ويقطعون الاراضي السبخة والقنوات والمدقات غير المطروقة التي أقامها الاباطرة والقياصرة لتصل بهم الى مكامن صيدهم عند البحر.

قلت في نفسي: هذا هو الوقت الذي ينام فيه.. الشاعر.. والملك.. والراقصة.. والسكران.. والعاشق.. وهو ما أدركه جاك بريفير حتما في شعره... كنت أسأل نفسي تلك اللحظة بالذات عن الرحلة الى المجهول، الرحلة الى أثينا هي الرحلة الى إيثاكا في شعر كافافيس، الرحلة الحافلة بالمغامرات المليئة بالمعارف، شريطة ان لا تخشى مردة الألومب ولا إله البحر الغاضب، الرحلة الى أثينا هي أن تسمع شاعرة بيروس المولعة بالحضارة الهيلينية، تتحدث وهي ترفع عينيها وتنفث الدخان من سيجارتها الكنت في وجهك، ثم تضع على كتفها حقيبتها الكاكية وترحل، وأنت مثل عامل قديم تقسم عندما يأتي الليل بنصائحه ومصالحته ووعوده بحياة أفضل، عندما يأتي الليل بعنفوانه، بعنفوان الجسد الذي يرغب ويطالب بالفرحة المحتومة ثم يعود خاسرا.

لقد سافر يانيسيس ريتسوس في السبعينيات من القرن الماضي الى ميكونوس التي تشتهر بشواطئها الجميلة، والبوتيكات الانيقة والملاهي الليلية، سافر الى الجزيرة الاغريقية التي تملؤها المئات من الكنائس الصغيرة والطواحين الجميلة.. فعرف جوهر الشعر.. في أواخر التسعينيات كنت تتبعت خطاه، رحلت الى أثينا من قبرص، بعد ان اشتريت من مكتبة صغيرة مختاراته الشعرية، وأجرت في أثينا غرفة رخيصة، غرفة منزوية في الخفاء.. وعشت حياة أثينا المملوءة بالمغامرات والمعرفة، فعرفت هناك الحانة المشبوحة والمظلمة، النافذة المقورة التي تطلق الضوء الذي يبضع سواد الشارع، الزقاق القذر والضيق، أصوات الرجال الذين يلهون، النساء اللواتي يغنين، السرير المتواضع الذي يحمل الرغبات والشفاه المتوقدة، وهناك أنتيوخس الملك السوري في مغنيسيا.. عرفت الشعر من الغفوة القصيرة والمتقطعة على المصاطب الخشبية في الأولومب، من التمدد على العشب وأكل الساندويشات الرخيصة، من التعب بعد رحلة يوم طويل، من النساء والاحلام والفن، أغمض عيني واهوي في دوامة بعيدة.. فتحيط بي أصوات متداخلة مع بعضها.. أبيات من الشعر.. ألوان تبزغ وتخبو... همهمات... صياح... أصوات الحقائب وهي ترتطم على الخشب.. روائح.. عطور... غبار على الأرضية الصلبة.. قشور فواكه.. ورائحة شواء الهمبركر من الأكشاك القريبة.

ذهبت مع ماريلا الى آيا نيكولاس الحي العادي في العاصمة أثينا الذي كان يقطنه الشاعر ريتسوس، تعرفت على صورته بقامته الطويلة وذراعيه النحيفتين وشعره المرسل الى وراء وذقنه الرمادي، دخلنا حجرته التي تضم طاولة مستديرة وعلب سجائر محلية وسكيتشات لبابلو نيرودا، رأينا لوحاته الزيتية، وصوره الفوتوغرافية والبورتريهات الكثيرة، شاهدنا أصص الزهور التي نسقها بيده، قرأنا قصائده المكتوبة بخطه، وقلبنا كتبه الكثيرة والمتنوعة، لقد شعرت بوجوده. (حتى بعد أن مات) وهو يشرب القهوة اليونانية ويأكل الكعك المحلي ذا الرائحة العطرة، ويقطع الازقة القديمة في أثينا بحثا عن مقهى بائس او مطعم يرتاده العمال والفقراء والبحارة الهرمون.. تعرفت على المكان، على أثينا الليل وهي تعلق فوانيسها الزيتية التي تتوهج وسط الضباب، واشترينا أنا وماريلا سمك السردين الطري، مثلما كان يفعل راهب القرية في شعر ريتسوس، وعدنا في الطريق الرئيس حيث الصيدليات المناوبة، ومحطات الوقود المفتوحة، وأسلاك التلغراف التي تئز في الريح، هناك رأيت بائع الفاكهة الشاب الذي فتح مظلة سوداء كبيرة فوق عربته، ورأيت التضاد بين البرتقال الذهبي والمظلة السوداء، وسمعت صوت المطر الذي جعل المشهد جميلا وغريبا وغامضا.. هذا هو السفر الى إثينا.. إنه الشعر كما حلم به ريتسوس.

جورجيس سيمونون.. الكاتب البلجيكي الأكثر إنتاجا

روب كيفر
ترجمة : قاسم مطر التميمي

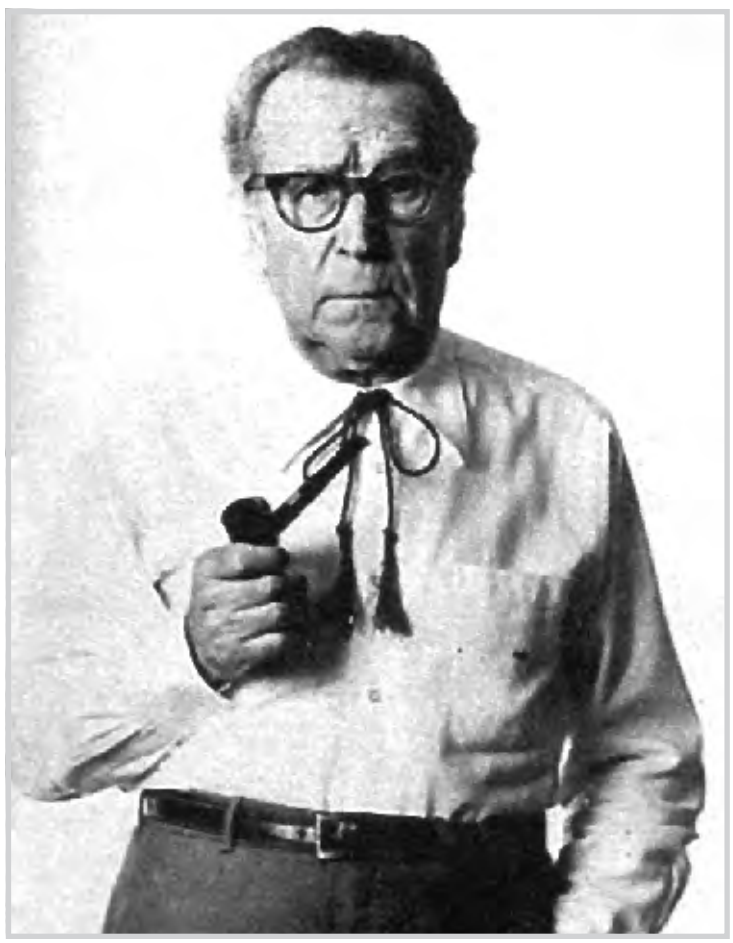

على بلاط شارع (رو دو لا لوا)) الذي تحفه شجيرات الآس وجدت جثة رجل ملقاة مغروسة في صدرها مدية ذات مقبض بني اللون مصنوع من قرن الغزال . وعندما اكتشف مساعد القسيس (جوستن) جثة القتيل في حوالي الساعة السادسة صباحا ، كان المطر يتساقط رذاذا باردا : ((كان الظلام يخيم على المكان . فقط في نهاية الشارع الى جهة الثكنة ، حيث يسمع المرء في الخامسة والنصف نداء النفير ووقع سنابك الخيل ، التي تقاد عند الفجر لتسقى الماء ، يرى المرء بصيص ضوء ينبعث من شباك في الزاوية ؛ ربما استيقظ أحدهم مبكرا أو كان مريضا جافت عيناه النوم . و إلا فقد كان الشارع كله نائما .))

حادثة لـ(ماغريت) معقدة ، ذلك أنّ الجثة قد اختفت في أثناء ذلك ولم يجد مساعد القسيس من يصدق روايته . ومفوض الشرطة ذو القوة البدنية الظاهرة والكلام المقتضب متعاطف مع سكان هذا الحي ؛ ((ليس سراً أن السكان كانوا هادئين وأناسا متواضعين . كانوا من المستخدمين والوكلاء التجاريين وصغار المتقاعدين ، وأرامل وِديعات ..)).

وفي جو ممطر شديد البرودة أصيب الشرطي القضائي بالزكام رغم قبعته الواسعة المصنوعة من الفراء وياقة معطفه المطري المرفوعة الى الأعلى . غير أنّ (جول ماغريت) الراقد في سريره يعاني من الحمى كان قد اقترب من التوصل الى حل . وعندما تركت السيدة ماغريت البيت لشراء لحم العجل المتبل . الطعام المحبب الى زوجها . تسلل المفوض الغارق بعرقه من فراشه ليدخن غليونه سراً، وما كاد ينهض واقفا حتى استغلّ الفرصة السانحة فأخرج من الدولاب الجداري قنينة من النبيذ الأحمر وأخذ منها جرعة كبيرة . ولم تعاوده الحمى في تلك الليلة لا كثيرا ولا قليلا مما سرع في الكشف عن ملابسات الحادث .))

عندما دون جورجيس سيمونون شهادة مساعد القسيس لم يجد صعوبة في النفاذ الى نفسية (جوستن) الصغيرة وكذلك وصف الحي الشعبي الصغير الموحش المستكين تحت سماء ممطرة ، مشهد لا يحتاج الى خيال : لا يحتاج الكاتب الذائع الصيت إلا الى الرجوع الى أيام طفولته في (لوتش) . Luttich هناك حيث كان يسكن في شارع (رو دو لا لوا) Rue de la loi رقم ٥٣ وينطلق مسرعا في صباح كل يوم ليشارك في فرقة التراتيل الدينية التابعة لمستشفى (أوبيتال دو بافير) .

ورغم أنه ترك المدينة البلجيكية الصناعية الواقعة على ضفاف نهر (الماز) Maas في التاسعة عشرة من عمره . الا أنّ ما من مكان آخر ترسخ في وجدان القاص كما ترسخت (لوتش) في وجدانه . يقول سيمونون مؤكدا : ((كل ما يترسخ في وجداننا بشدة ويؤثر في مشاعرنا وانطباعاتنا يعود الى سنوات العمر المبكرة ، حتى السنة السابعة عشرة ، وفي أعلى تقدير السنة الثامنة عشرة)) .

والآن حيث يستقر رفات الرجل الذي ابتدع شخصية (ماغريت) ومات عن ٨٦ عاما ، تحت ظلال شجرة أرز في حديقة صغيرة بمدينة لوزان ، ما زال العديد من محبيه ومريديه يحجون الى مدينة (لوتش) ليروا بأعينهم المواقع التي جرت فيها أحداث الروايات ، مثل : (ماغريت والمشنوق من سانت فولين) أو (أصدقائي المجرمون الثلاثة) ، وليقتفوا معالم آثاره الأدبية . ابتداء من (القنطرة) القصة التي كتبها وهو في السابعة عشرة من عمره و (الناس الصغار في حي أوتروموس) الحي المبنية بيوته بالآجر . وكذلك أيضا الخمارات والمرافئ والمطاعم وبيوت العمال ودور المتقاعدين وأرصفة الشوارع المبتلة بمياه الأمطار وأماكن أخرى كانت مسارح لروايات سيمونون وكتبه . (لوتش) المدينة الإقليمية الجنوبية البلجيكية ولكنها أيضا المستودع الشامل لأعماله الأدبية كلها . وقد ضمن الكثير من رواياته أشخاصا وصورا لأجواء اجتماعية من مرحلة طفولته وشبابه في (لوتش) . هناك حيث ولد المؤلف في شقة عتيقة بائسة تتكون من غرفتين تقع في شارع (ليوبولد) . ولد يوم الجمعة ١٣ شباط ١٩٠٣ غير أنّ أمه ولتشاؤمها من الرقم (١٣) فقد سجلت تاريخ مولده في السجل المدني في الثاني عشر من شباط .

عاش آل سيمونون في ظروف قاسية تتسم بالفقر والعوز، فأبوه (ديزير) كاتب حسابات ذو مرتب ضئيل، وأمه (هنريتا) التي كانت تعمل بائعة في احد المتاجر الكبيرة ، فقدت وظيفتها حال زواجها . يقول جورجيس سيمونون في مذكراته : ((كنا فقراء . ليس فقراء بكل معنى الكلمة ، ليس في الدرك الأسفل من السلم الاجتماعي . كنا ننتمي الى الطبقة الوسطى بين الفقراء والأثرياء الذين نجدهم في كل أنحاء العالم . الذين يثيرون الاستياء في نفسي . ألسنا كلنا بشرا ؟))

وعندما استأجرت الأسرة بيتا في شارع (دو لا لوا) وأجرت بعضا من غرفه لطلبة أجانب قادمين من روسيا وبولونيا ورومانيا عرف الصبي ذو الاثني عشر عاما طعم المشويات والمقليات وأصابع البطاطا المحمرة وعرفه الطلبة القادمون من الشرق على أعمال (دوستويفسكي) و (غوركي) و (غوغول) و (تشيخوف) . وأكثر من التردد على مكتبة المدينة حتى حصل على حق الاستعارة منها رغم صغر سنه ؛ فقرأ (فولكنر) و (همنغواي) و (كونراد) و (ستندال) و (بلزاك) .

واضطر (سيمونون) بعد موت أبيه المبكر الى أن يترك دراسته قبل أن يتمها ليوفر لقمة العيش لأمه وأخيه (كرستيان) الذي يصغره بثلاث سنوات . ولم يستمر طويلا في مهنتيه الأوليتين ؛ بائع حلويات ومساعد في مكتبة تجارية .

في السابعة عشرة من عمره أصبح سيمونون مراسلا للصحيفة اليومية التي تصدر في لوتش (جريدة السنديان) Gazette de Liege فكان يزود الجريدة بتقارير عن الحوادث اليومية وأخبار الشرطة ، ويكتب للجريدة أيضا مقالات في النقد المسرحي، واشترى من أول مرتب له دراجة هوائية طالما حلم باقتنائها في طفولته .

في التاسعة عشرة من عمره استقل القطار الى باريس وحمل معه كل ممتلكاته في حقيبة جلدية كبيرة هربا من أمه التي تؤثر أخاه كرستيان عليه ، ومن خالته المتزمتة وأبناء عمومته المشاغبين وعمومته الطيبين . هروب من مدينة صغيرة بمدينة لوزان ، ما زال العديد من محبيه ومريديه يحجون الى مدينة (لوتش) ليروا بأعينهم المواقع التي جرت فيها أحداث الروايات ، مثل : (ماغريت والمشنوق من سانت فولين) أو (أصدقائي المجرمون الثلاثة) ، وليقتفوا معالم آثاره الأدبية . ابتداء من (القنطرة) القصة التي كتبها وهو في السابعة عشرة من عمره و (الناس الصغار في حي أوتروموس) الحي المبنية بيوته بالآجر . وكذلك أيضا الخمارات والمرافئ والمطاعم وبيوت العمال ودور المتقاعدين وأرصفة الشوارع المبتلة بمياه الأمطار وأماكن أخرى كانت مسارح لروايات سيمونون وكتبه . (لوتش) المدينة الإقليمية الجنوبية البلجيكية ولكنها أيضا المستودع الشامل لأعماله الأدبية كلها . وقد ضمن الكثير من رواياته أشخاصا وصورا لأجواء اجتماعية من مرحلة طفولته وشبابه في (لوتش) . هناك حيث ولد المؤلف في شقة عتيقة بائسة تتكون من غرفتين تقع في شارع (ليوبولد) . ولد يوم الجمعة ١٣ شباط ١٩٠٣ غير أنّ أمه ولتشاؤمها من الرقم (١٣) فقد سجلت تاريخ مولده في السجل المدني في الثاني عشر من شباط .

عاش آل سيمونون في ظروف قاسية تتسم بالفقر والعوز، فأبوه (ديزير) كاتب حسابات ذو مرتب ضئيل، وأمه (هنريتا) التي كانت تعمل بائعة في احد المتاجر الكبيرة ، فقدت وظيفتها حال زواجها . يقول جورجيس سيمونون في مذكراته : ((كنا فقراء . ليس فقراء بكل معنى الكلمة ، ليس في الدرك الأسفل من السلم الاجتماعي . كنا ننتمي الى الطبقة الوسطى بين الفقراء والأثرياء الذين نجدهم في كل أنحاء العالم . الذين يثيرون الاستياء في نفسي . ألسنا كلنا بشرا ؟))

وعندما استأجرت الأسرة بيتا في شارع (دو لا لوا) وأجرت بعضا من غرفه لطلبة أجانب قادمين من روسيا وبولونيا ورومانيا عرف الصبي ذو الاثني عشر عاما طعم المشويات والمقليات وأصابع البطاطا المحمرة وعرفه الطلبة القادمون من الشرق على أعمال (دوستويفسكي) و (غوركي) و (غوغول) و (تشيخوف) . وأكثر من التردد على مكتبة المدينة حتى حصل على حق الاستعارة منها رغم صغر سنه ؛ فقرأ (فولكنر) و (همنغواي) و (كونراد) و (ستندال) و (بلزاك) .

واضطر (سيمونون) بعد موت أبيه المبكر الى أن يترك دراسته قبل أن يتمها ليوفر لقمة العيش لأمه وأخيه (كرستيان) الذي يصغره بثلاث سنوات . ولم يستمر طويلا في مهنتيه الأوليتين ؛ بائع حلويات ومساعد في مكتبة تجارية .

في السابعة عشرة من عمره أصبح سيمونون مراسلا للصحيفة اليومية التي تصدر في لوتش (جريدة السنديان) Gazette de Liege فكان يزود الجريدة بتقارير عن الحوادث اليومية وأخبار الشرطة ، ويكتب للجريدة أيضا مقالات في النقد المسرحي، واشترى من أول مرتب له دراجة هوائية طالما حلم باقتنائها في طفولته .

في التاسعة عشرة من عمره استقل القطار الى باريس وحمل معه كل ممتلكاته في حقيبة جلدية كبيرة هربا من أمه التي تؤثر أخاه كرستيان عليه ، ومن خالته المتزمتة وأبناء عمومته المشاغبين وعمومته الطيبين . هروب من مدينة كئيبة . يقول : ((لقد خالفت كل التقاليد عندما لم أظهر أي استهانة بمدينتي الصغيرة وقررت أنْ باريس وحدها هي الجديرة باحتضاني .)) وبقي (سيمونون) سنوات كثيرة بعد ذلك يلازمه شعور بالحب والبغض لمدينته (لوتش) وأزجى لها ولسكانها احتراما في روايته (جذع الشجرة) التي يسرد فيها سيرته الذاتية .

وفي باريس (انقبر) في حجرة فوق سطح أحد الفنادق الشعبية . عمل ساعيا لدى كاتب أديب ثم سكرتيرا للماركيز (دي تريسي) M arquis de Tracy بأجر زهيد . يقول : ((لقد جعت ولم أجد ما آتغذى عليه غير الخبز والجبن .)) وفي ٢٤ آذار ١٩٢٣ تزوج سيمونون من الرسامة (ريجين رنخون) التي تعرف عليها في لوتش، في اطار جماعة فوضوية تضم طلابا وفنيين يحتسون العرق الرخيص ويتعاطون الكوكائين ، وبوسعهم أن يناقشوا أفكار لينين وفرلين وأفلاطون .

ولكي يتخطى العقبات والمطبات بدأ (سيمونون) برصف الحروف والكلمات على خط إنتاجي لا ينقطع من القصص والروايات العاطفية والإباحية، فامتلأت بها أكشاك محطات القطارات و الحافلات ، روايات تدعى Paris – Frou Frou، Flirt أو . Ricet Rac واستخدم لذلك عشرات الأسماء المستعارة . وكانت أول رواية كلف بكتابتها، صدرت تحت عنوان (حياة كاتبة طابعة) كتبها في صباح يوم واحد في احد المقاهي . إن ولعه بالكتابة لا يعادله إلا شغفه بالجنس وحب النساء . أحيانا يكتب ثمانين صفحة في اليوم الواحد . ورواياته التي (تبدأ بالحب وتنتهي بالزواج) تقرأها بنهم ، على الخصوص ، الفتيات المراهقات والخياطات وكذلك أيضا بوابو العمارات .

الكاتبة (كوليت) مديرة القسم الثقافي في صحيفة (لوماتن) Le Matin قدمت نصيحة الى الشاب الغزير الكتابة ؛ ((عزيزي سيمونون الصغير ، أمح كل الصيغ الأدبية من أعمالك وسوف نطبع رواياتك وقصصك ..)) وقال سيمونون معقبا : ((انها أفضل نصيحة تلقيتها في حياتي .))

وبادر منذ ذلك الحين الى محو كل (الصفات) و (الظروف) الزائدة عن الحاجة ، واقتصر على أسلوب بسيط جارف خال من الزخرفة اللفظية والتنميق

المكافآت النقدية الضخمة التي تسلمها من دور النشر جلبت له الثروة والشهرة . فانتقلت الأسرة الى شقة كبيرة في ميدان Place des Vosges حيث أقامت زوجته مرسما لها . وأصبح (آل سيمونون) من أصحاب الأعمال وتعرفوا على بيكاسو و (فلامنك) Vlaminck

في باريس اشترى قاربا طوله أربعة أمتار . وجاب به سنة ١٩٢٨ معظم الأنهار والقنوات الفرنسية وكتب على ظهره قصصا وروايات حقق فيها أرقاما قياسية في السرعة . كتبها لدور نشر فرنسية . وصحب على ظهر القارب زوجته ومدبرة منزله وكلبه الدنماركي الكبير (أولاف) . ومع نفس الطاقم أبحر سيمونون في السنة التالية على ظهر قارب أكبر الى بلجيكا وهولندا والنروج .

وخلال توقف الزورق في الميناء الهولندي (دلفتسيل) Delfzijl للصيانة ، قام سيمونون بجولة على أرصفة الميناء واكتشف في الماء المالح قارباً قديماً تجول فيه الجرذان . قال : ((جمعت وسادات قديمة فوق حافة متهرئة ووضعت فوقها آلتي الطابعة . وبعد يومين شرعت بكتابة رواية جديدة . ربما تكون مثل سابقاتها وربما تكون أيضا شيئا آخر . لقد كانت هذه الرواية إيذانا بولادة شخصية (ماغريت) Maigret الشخصية التي لم أتعرف عليها قبل ذلك ولم تدع لي فرصة للهدوء والسكينة طيلة سنوات كثيرة وغيرت حياتي من الأساس)).

ناشر أعمال (سيمونون) في ذلك الحين (آرتيم فايارد) Artheme Fayard كان متشائما . اذ كيف يحب القراء مفتش شرطة باريسي لا يتمتع بعبقرية واسعة وقلب شجاع ، وتعوزه الفطنة لاكتشاف المجرم ويبقى ساعات طوال يتأمل كأس البيرة أمامه . وتنضح إبطاه عرقا في مكتب التحقيق العبقة أجواؤه بالدخان، الذي يحب الليل والمطر والبقاء في البيت ولا يسافر الامضطرا ، وتودعه زوجته صباح كل يوم بركلة من قدمها على مؤخرته ؟

ثم قرر الناشر (فايارد) بعد ذلك أن يطرح أولى روايات (ماغريت) في الأسواق . وكم كان النجاح مدهشا بل ولا مثيل له في تاريخ الأدب . انكب (سيمونون) على كتابة الروايات البوليسية وبطلها (ماغريت) حتى بلغ مجموعها (٨٤) رواية سنة ١٩٧٢ وطبعت منها ملايين النسخ وعدد لا يحصى من الأفلام السينمائية وترجمت الى خمس وخمسين لغة ، حتى الى القرغيزية والأوزبكية .

وأصبح (سيمونون) معروفا عالميا ، باعتباره أستاذا في فن الوصف الجوي Atmoshareschilderung الذي يختزن في ذاكرته العطور والألوان والأصوات وحقق شهرة واسعة من خلال رواياته البوليسية الشعبية وتحقيقاته السياحية ومذكراته . من خلال الكم الهائل من كتاباته التي تربو على مائتي كتاب.

وأصاب (سيمونون) ثراء واسعا و عاش حياة مترفة و نعيما باذخا . غير سكناه ثلاث و ثلاثين مرة فعاش في قصور و فيللات و مزارع، و تنقل في بلدان عديدة، فعاش في كندا والولايات المتحدة وعاد الى فرنسا واستقر به المقام أخيرا في سويسرا . وشهدت الحياة الأسرية لآل سيمونون أزمات وفضائح . ففي سنة ١٩٥٠ طلق زوجته الأولى ليتزوج من سكرتيرته الكندية (دنيز كوميت) . وانتهت هذه الزيجة أيضا بالفشل بسبب إدمان الزوجة على المسكرات والمخدرات، ورسا المؤلف الناجح في شيخوخته عند المرأة التي تحبه وترعاه (تيريزا) مدبرة منزله الوحيدة . وعندما أقدمت صغرى بناته الشغوف بها ماري (٢٥ سنة) على الانتحار أوقف نفسه على كتابة (صفوة المذكرات) آخر أهم الآثار الأدبية التي كتبها.

وجاء (بلزاك العصر الحديث) كما أطلق عليه صديقه (أندريه جيد) الى مسقط رأسه مرة واحدة بعد زواجه ؛ وذلك سنة ١٩٥٢ عندما حصل على عضوية الأكاديمية الملكية البلجيكية . وقد أوصى قبيل وفاته بأرشيفه الخاص ومكتبته الى مدينته لوتش . المدينة التي شهدت مسقط رأسه .

الطائر والنخلة.. جانب من تجربة حسب الشيخ جعفر الأبداعية

مسرحية الصفارة.. مونودراما بأصوات متعددة

ريسان الخزعلي

١

رغم تحفظ الشاعر على تسمية (مسرحية) التي وردت بالتوصيف (محاورة شعرية).. الا انها عمل مسرحي متكامل، حيث الديكور والحوارات المتدفقة والمشاهد المتنوعة والفعل الدرامي.

استهل الشاعر (حسب الشيخ جعفر) مسرحيته بتوضيحين، أولهما (في ذكرى موسى ولطيف وسلمان) ويعني بهم، موسى العبيدي، لطيف ناصر حسين، وسلمان الساعدي، وقد وصفهم بـ(الساخر والقاص والشاعر) تبعاً لواقع ابداعي معروف عنهم وبدلالة (في ذكرى)، وهي إشارة لرحيلهم وليس لغياب محدد، اما التوضيح الثاني.. فقد كان بيتاً شعرياً للشاعر أبي نواس:

سهوت، وغرني أملي..
وقد قصرت في عملي

والشاعر أبو نواس يرتبط به الشاعر (حسب الشيخ جعفر) في اكثر من تشابه، سواء كان في هذه المسرحية او في اعماله الشعرية المعروفة، لاسيما المناخ الشعري والنفسي، وبذلك تكون للتوضيحين دلالة مشتركة تشير الى إرتباط بمشتركات روحية وتعارضات مع دهشة قادمة من (صدمة حرمان) املتها ظروف واقعية أسقطت مشتركاتها في وعي جمعي، تمسرح روحياً بالخفاء، وأعلن عن حدته بقوة (الصفير) في مسرحية (الصفارة).

٢

في مسرحية (الصفارة).. يكون تسلسل ظهور الشخوص في الحوارات على نحوٍ مدروس:

١-السكير.
٢-النادل.
٣-الشاعر.
٥-المهاجر.
٦-الحارس.

(والسكير) في المسرحية هو الشاعر (حسب الشيخ جعفر)..، ومن هنا تجيء قصدية التوضيح الثاني- الذي وضعه عامداً في الظهور الأول حيث التناظر مع أبي نواس دون تردد، وللمناخ الذي أشرت إليه.

السكير: (مصفقاً بيديه، هاتفاً بالنادل).
-عجل بالخمر وبالمزة.
-عجل بالخمر كريم.
النادل: (مقترباً مبتسماً، مستبشراً بالخلاص: قنينة، أستاذ، تحملها معك).

من هذا الحوار، يتأكد السلوك النفسي والاجتماعي للشاعر (حسب الشيخ جعفر)..، هذا السلوك المعروف عن الشاعر والذي أوضحه (النادل)، وذلك السكير - الشاعر.. (ولنلاحظ تأكيد الشطرة الشعرية الثانية على الخمرة، بعد ان كان التأكيد في الشطرة الاولى على الخمرة والمزة).. من هنا مرة اخرى، نشير الى قصدية التوضيح الثاني (المشترك بين أبي نواس وحسب الشيخ جعفر- الشعر مجلس الخمرة والانصات الحلمي للروح.. كما ان الخوف من إنفلات (النشوة الازلية).. هو المشترك الاهم بين الاثنين...، وهذا ما عرفته المسرحية في فعلها الدرامي.

٣

مسرحية (الصفارة) تقيم محاكاتها الدرامية (الشعرية حول فكرة) الزوال والخواء..، وقد أفصح الشاعر بذلك بأول ديكور..، (هي الحديقة الخلفية، حديقة اتحاد الادباء العتيقة المهملة.. يشقها من المنتصف الممر الضيق الممتد بين الشجيرات الواطئة، المتباعدة بأزهارها الحمر الكبيرة الذاوية.. عن جانب من الحديقة تبدو أسوار (المزاد) العالية، وهي تشف عما خلفها من أثاث معروض، والمزاد خالٍ الآن لايضيئه غير مصباح واحد عن الجانب الاخر من الحديقة يعلو المستشفى وهو مستشفى خاص بالمجانين من اصحاب الملايين، وهو مظلم الان، مغلق النوافذ، في الفسحة الصغيرة الحجرية من الحديقة يقف تمثال الشاعر الاعجف المحزون مقوس الظهر، ناتئ الأضلاع بؤساً وهزالاً.. الليل قد انتصف منذ ساعتين، والحديقة، وهي كأية حانة صيفية اخرى، خالية الا من السكير المتأخر، المنفرد عند مائدته، وهو يبدو نسخة ثانية من تمثال الشاعر المحزون، فهو يشبهه شبهاً كبيراً واضحاً وكأنه هو.. لقد إنفض السامرون منذ زمن، فالموائد خاوية مقفرة.. ، عن بعد يلوح النادل (كريم-وهو من أصحاب الحانة)، فهو يحوم مترددا مترقبا انصراف السكير المتأخر الأخير.. غير ان الضيف لم يزل يرافق الكأس الملأى والقنينة الفارغة..، في الممر الضيق تتقدم أشباح الموتى الثلاثة وهم الساخر والقاص والشاعر دون ان يراهم النادل او يسمعهم طوال المشهد، يتقدم الموتى باتجاه صاحبهم السكير المتأخر.. يصافحون السكير صامتين ويجلسون على الكراسي من حوله وأعينهم الى القنينة الفارغة والكأس الملأى).

ان الديكور (المشهد هذا، لا يشيء الا بالزوال والخواء)..، حديقة عتيقة مهملة، الشجيرات الواطئة، الازهار الذاوية، مصباح واحد، المستشفى المظلم، الشاعر الذي يشبه التمثال الاعجف، الهزال، الموائد الخاوية، أشباح الموتى، القنينة الفارغة.. الخ، وقد لاحظنا أن الشاعر يتعمد توصيفات دون غيرها ليسقطها على ذاته بعلانية شعورية -لاشعورية لتاكيد محنته في الخواء والزوال (تمثال الشاعر الاعجف المحزون مقوس الظهر يشبه الشاعر والعكس كذلك، السكير المتأخر=الشاعر السكير المتأخر).

ان الشاعر (حسب الشيخ جعفر) ينشد الى واقعية سحرية يواجهها بدهشة شعرية -مسرحية استعادية.. وقد كان الخواء في المكان والزوال للنداء من الادباء..، فبالاضافة الى الثلاثة..، يستعيد حضور الشاعر (سعدي يوسف) لا شعورياً في مناخ خانقٍ وبالتلميح الشعري:

الساخر: متهكماً كعادته فيما يقول:
-وأسرع فأنت (ابو المروءة).
من قبل ان تقع النبوءة..
وتطيح بالارض الزلازل والسيول
السكير: (متذكراً في غموض)
الا حكايات النساء
القاص: أوهنت من سالم البلام كفيه المرادي
واحتوى التنور أخشاب السفينة
ما استطاب الطائر البصري أنخاب البعاد..
انما الريح هي الريح الضنينة..
السكير: (متذكراً وبحزن قديم)
قد كان والدها يمو..
كالقط في عز الشتاء
(يترنمون جميعاً بأصوات خافتة، هادئة)
-ياسالم المرزوق خذني في السفينة

(وسالم المرزوق هو البطل المنادى في قصيدة إلحاح للشاعر سعدي يوسف) وقد كانت ملاذاً غنائياً للشاعر حسب الشيخ جعفر والاشباح التي تترنم معه كما جاء في المسرحية، الا ان القصيدة في الواقع هي الملاذ الغنائي للشاعر فقط.

٤

مسرحية (الصفارة).. كتبت في سنوات الحصار (حيث الجوع والخواء والفراق الاضطراري)..، وحيث الزوال السريع للامكنة والاوقات والناس، وبذلك كانت (الصفارة) هي الصيحة الوحيدة التي يمكن ان تنطق (وحتى الشاشة في مستشفى المجانين لم تعرض العناق العاصف بين الزنجي والشقراء.. غير ان الزنجي لم يعد هو الزنجي نفسه.. بل هو هذا (الوجه الاخر) الغامض للسكير)..، وهنا يظهر التلميح الشبقي (الجنسي الذي كان واحداً من عناصر الخواء الروحي) الجسدي في محنة الشاعر الوجودية، إن (الزوالات) قد لفحت الجميع ولم يتبق في المشهد الا السكير/ الشاعر، وقد اغوى حتى الحارس بأن يحتسي ما تبقى من الخمرة.. ليطلق صفارته الاخيرة ولا احد يسمعها غير الشاعر/السكير.

الحارس (وديعاً مترفقاً)
-هل أوقف تكسياً لك؟
السكير: مازلت اطارح تمثالي حباً وقشور
في الضوء الممتقع البالي
الحارس: (مكرراً كالصدى)
-في الضوء الممتقع البالي
السكير: (وحيداً، محدقاً في الفراغ)
-ما من احد، لا جلاس.
لقد انصرفوا، انصرفوا
من اعراض السكر القرف..
وربيع الخمر الأفلاس.
(فجأة تنفتح نوافذ الطابق الارضي من المستشفى الخاص الملاصق لحديقة الاتحاد، تنفتح عن المجانين.. يقتحمون الحديقة، يحيطون بالسكير المنفرد دائرين من حوله راقصين، محتفلين، حفلتهم الليلية المتكررة المعتادة.. السيدات بشعرهن الطويل المحلول، والسادة برؤوسهم الحليقة)
ان تكرار الحفلة الليلة، ما هو الاتكرار السكير/ المنفرد في حديقة خاوية أمام تمثال اعجف واشباح قادمين من مقابرهم، وذكرى شاعر من (هناك).

٥

ان البراعة الدرامية والشعرية في مسرحية (الصفارة).. تكمن في إستدراج (الأصوات) المتباعدة الى صوت واحد، هو صوت الشاعر، وبذلك كانت (مونودراما) بأصوات متعددة، مسك الشاعر باطراف خيوطها واستلها خيطاً واحداً في عمل درامي (شعري) توفر على عناصره الفنية والجمالية.. وقد ترك لنا رنين الصفير مستمراً.